الأدب في عصر الثورة الرقمية

د. جاويد نديم الندوي*

موجز البحث

لقد خسر المجتمع كثيرًا بخسارة الأدب، ذلك الأدب الذي كانت غايته إحداث ثورة فكرية تقود الشعب نحو خلق بيئة قوية تتسم بالوعي والإحساس بالتعاضد والتضامن، وتتسم تصرفاته بالاستقامة والإخلاص والإيثار والتودد. لكن مع تغير وجهات النظر عقب الثورة الصناعية، طغت الأهداف المادية، واستولت الطبقة الرأسمالية والمؤسسات المالية العالمية على الأدب، ملقحة إياه بمعانٍ تخدم مصالحها الاقتصادية، لتفرض هيمنتها على مفهومه بالكامل، حتى خضع الأدب لسيطرة الرأسمالية. ثم تلاعبت به عبر التكنولوجيا ووسائل الإعلام والاتصالات، فتلاشى منه مفهوم القيم والمبادئ الأخلاقية، وحلّت محله مفاهيم الحب والتشويق والإغراء والإثارة والإباحية تحت شعار الإبداع والابتكار. وهكذا، سيطرت الاتجاهات السلبية على عقول الناس، عززتها التكنولوجيا، فراجت موضوعات مثيرة عبر الفضاء الإلكتروني.

ابتعدت الجماهير عن الكتب الأدبية والنصوص التربوية، وانجذبت القلوب إلى المواد المعروضة على شاشات التلفاز، ثم الحواسيب. ولم تكتفِ منصات التواصل الاجتماعي بذلك، بل صبّت مزيداً من الزيت على النار، فاتجه المراهقون إليها بغرض الترفيه التافه، ولحقت الخسارة بالجيل الناشئ، إذ ضلّ الناس الطريق وتاهوا في دروب الحياة اللماعة الخادعة. ولإعادتهم إلى المسار الصحيح، يجب الترويج لأدب يزكي النفوس ويصفي القلوب، ويهذب العقول، وينفخ فيها روح السماحة والاستقامة والأمانة وضبط النفس، ويعلي قيم احترام الإنسان، والحياء، والعفة، والكرامة.

كلمات مفتاحية: الأدب، التكنولوجيا، القلق، الاضطراب، التربية، الانبساط الروحي

تمهيد:

مما لا شك فيه أن الأدب كلما ارتبط بالقيم والمبادئ الأخلاقية كلما تعززت به الثقافة بنفس القدر. فمن أجل غرس ثقافة مؤثرة في قلوب الناس من اللازم أن يحتوي الأدب على محتويات تصفي

---

* الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية، جامعة مولانا آزاد الأردوية الوطنية، حيدرآباد

النفوس وتنقّي الأرواح إلى جانب قيامه بتعزيز الذكاء والقدرة على الفهم والاستنتاج والتحليل والتمييز.

وفي ظل الثورة الرقمية لقد تعرّض الأدب لتحديات متنوعة. إذ كان من المفترض أنه يلعب دوراً قيادياً في ترشيد الشعب إلى تحقيق النمو الفكري والنضج الثقافي، ليمكن التقدم إلى مستقبل أفضل، وأكثر إشراقاً وأمانًا. ولكن تجلّى للباحثين أن الوضع مختلف تماماً.

مع الطفرة التكنولوجية، تغيرت الظروف وسلكت مساراً مغايراً لما كان مأمولًا. فالأدب، رغم توافره بين أيدينا في أكمل صورة وأفضل حال، عجز عن تهذيب النفوس وصقل الأذهان، لاسيّما في عصرنا الحالي. وتشير التحليلات العلمية إلى أن الغزو الرقمي لعب دوراً بارزًا في استفحال هذه الأزمة، إذ يسهم الجهاز الرقمي بشكل ملحوظ في تشتيت الانتباه من الأمور الجوهرية إلى التفاهات، إلا إذا كان المستخدم ناضج الفكر، واعي الذهن، وقادراً على التمييز بين النافع والضار. فبينما يتم تبادل الأفكار والأشعار عبر الشبكة، نادراً ما نجد ما يعزز العقول أو ينير القلوب.

لهذا السبب، اندفع حاكم كاليفورنيا، جافين نيوسوم، إلى إصدار قرار بحظر استخدام الهواتف الذكية داخل الفصول الدراسية، سعيًا لتهيئة بيئة مواتية للأغراض الأكاديمية. وأُرسلت خطابات إلى مديري المدارس تحمل توجيهات تؤكد ضرورة منع الشباب من استخدام الهواتف الذكية في السياق الحالي، لما في ذلك من ضرر على تركيزهم في الشؤون التعليمية نتيجة الاستخدام المفرط. وليس الأمر مقتصراً على معاناة التعليم فحسب، بل برزت قضايا أخرى، كالأضرار الصحية والنفسية. فقد لوحظ أن القلوب أصبحت أكثر قسوة وظلاماً بسبب الإفراط في استخدام هذه الأجهزة، ويرجع ذلك إلى الابتعاد عن الأدب ونصوص التربية. فانجذبت القلوب إلى الآلات الرقمية، وأصبحت تهتم بالانغماس في منصات التواصل الاجتماعي، وهو أمر مخزٍ للإنسانية، مدمر للشعب والمجتمع، لا نقاش فيه[1]. كما اتخذت السويد خطوات مهمة للحد من استخدام الأجهزة الإلكترونية في المدارس والعودة إلى أساليب التعلم التقليدية كالقلم والورق والكتب الورقية. يُعد هذا التحول جزءًا من سياسة أوسع نطاقاً "للتخفيف من حدة التصعيد الرقمي" مدفوعةً بمخاوف بشأن تراجع

[1] تقرير صحفي في جريدة أردوية "اسكولوں میں اسمارٹ فون کے استعمال پر پابندی" روزنامه منصف، حیدرآباد، اگست 15، 2024

أداء الطلاب، لا سيما في مهارات القراءة والكتابة، والآثار السلبية المحتملة للإفراط في استخدام الشاشات.

ظهور التكنولوجيا:

في عصر ظهور التلفزيون، روّج له على أنه أداة نافعة جداً في مجال التربية والتعليم، فحظي بانتشار واسع بدعوى أنه أكثر فعالية وفائدة لتعزيز العملية التربوية. وحلّ بشكل مباشر محل النظام التقليدي الذي كان يعتمد على قدوم الأستاذ حضوريا لإلقاء الدروس. ساد الاعتقاد بأن التكنولوجيا تفوق المنهج التقليدي نفعًا، وأنها ستعود بالفائدة الأكبر على الجيل الناشئ مقارنة بالنظام الموروث، لقدرتها على إيصال الرسالة إلى جموع هائلة من الناس في وقت قصير. لكن، وعلى الرغم من ذلك، أثبتت التجربة أن التلفزيون أضرّ بالناس ضررًا كبيرًا، وأضلّهم ضلالًا بعيدًا.

فقد تأثر المشاهدون، سواء أطفالًا كانوا أم شبابًا، تأثرًا عميقًا ببرامج التسلية والترفيه التي بُثت عبر الأثير. إذ كانوا يمضون أمام الشاشة أوقاتًا ثمينة كانت مخصصة أصلًا للدراسة، فانعكس أثر تلك البرامج على سلوكياتهم وتعاملاتهم. وقد لاحظ بعض العلماء أن الأطفال، عند مشاهدتهم برامج تحمل طابعًا عدوانيًا، يميلون إلى اعتماد سلوك عدواني مباشرة بعدها. وربما لم تظهر بعض التأثيرات في الحال، لكنها بدت تتجلى لاحقًا عندما يبلغ الطفل سن الوعي، حيث تتفاعل العوامل الداخلية مع الظواهر الخارجية لتكشف عن نتائجها[2].

إلى جانب الخسارة في الدروس، أحدث التلفزيون تأثيرًا بالغًا وحيويًا في تعزيز السلوك العدواني لدى الناشئين .أما الجوانب المعرفية، والتعليم الاجتماعي، والتنشئة الاجتماعية، فلا تترك أثرًا في النفوس إلا إذا كان الأفراد مزودين بالاستعداد النفسي اللازم .وينبع هذا الاستعداد من المحيط الذي تشكله التفاعلات بين أفراد المجتمع، وهنا يبرز دور الأدب الهام في تهيئة هذا المحيط .وقد لاحظ الباحث الاجتماعي التربوي ويلبر شرام أن الأطفال في الولايات المتحدة الأمريكية لا يعتمدون على التلفزيون في شؤونهم الدراسية، بل ينظرون إليه كوسيلة تسلية وترفيه، مقتصرين مفهوم التربية والتعليم

[2] د. جمانة رشيد شومان، "**التلفزيون**"، مجلة العربي الشهرية، وزارة الإعلام بدولة الكويت ، العدد 428، يوليو 1994، ص. 165

على المدرسة في المقام الأول[3]. فاتضح من هذا الموقف أن بيئة التربية والتعليم ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالدروس التي تُستمد من الكتب. أما التلفزيون، فهو بلا شك وسيلة تسلية، وتأثيراته سلبية بشكل عام. ذلك أن الناشئين نادرًا ما يتحمسون لمتابعة برامج جادة تدعم الأغراض التربوية، مفضلين عليها برامج التسلية والترفيه.

الهدف المنشود بالتكنولوجيا:

ينبغي لنا أن ندرك السر الكامن وراء الترويج للتكنولوجيا، سواء أكانت تكنولوجيا الاتصالات، أو المعلومات، أو الذكاء الاصطناعي. فقد انبثقت جميعها من الرأسماليين والمستثمرين الذين يخدمون مصالح القوى الاقتصادية الكبرى. ولكي نفهم حقيقة "الإمبراطورية الإلكترونية" التي ترسخت في قاموسنا كمفهوم وبنية دلالية، مع استخدام الحرف "e" بالإنجليزية، علينا أن نعي أن هذا الحرف يرمز إلى عالم الاتصالات الجديد الجريء الذي يعتمد الوسائط الكهربائية. وهذا النظام ليس كيانًا منعزلاً، بل يشمل شبكات الاتصالات، وأنظمة التجارة المتشابكة عبر الوسائل الإلكترونية، ويرتبط ارتباطًا وثيقًا بأنماط الإنتاج والأسواق المالية العالمية. فهناك علاقة عميقة بين التكنولوجيا والرأسمالية، ونعيش الآن في عصر "الرأسمالية المعلوماتية".

لقد تبين أن البرامج المدعومة ماليًا عبر الإعلانات التجارية تُبث بعناية وهدف محدد، إذ تبذل شركات الإعلام جهودًا حثيثة لعرضها في أوقات ذروة المشاهدة. وبهذا، تنتشر أهداف القوى الرأسمالية بين الناس. فالتكنولوجيا، والمعلومات، والرأسمالية العالمية مترابطة بإحكام، مما يعزز فكرة "القرن الأمريكي" التي عبر عنها هنري لوس في بيانه، حيث دعا إلى إدراك حقوق أمريكا ومسؤولياتها كقوة عالمية صاعدة[4].

التكنولوجيا والعولمة:

ساهمت التكنولوجيا، كأداة قوية، في تحقيق أهداف العولمة وطموحاتها. فقد بدأت أفكار

[3] نفس المصدر، ص. 166

[4] Rita Raley, **Technology and Cyber-cultures**, Chapter 23, *Literature and Globalization; A Reader*, Ed. Liam Connell and Nicky Marsh, Routledge Literature Readers, 2011, p. 231

العولمة، بأشكالها المتنوعة، تؤثر في تفكير الأدباء والباحثين، تاركة أثرًا عميقًا في اتجاهات النقد الأدبي. حتى بلغ الأمر بالباحثين والأدباء أن وضعوا منهجًا خاصًا يدعم نظرية العولمة لتعزيز الرأسمالية. ونشطت المؤسسات وسعت لإثراء دراسة الأدب وفق هذا النهج، وهو دليل واضح على مدى تأثير الرأسمالية في توجيه مسار الأدب[5].

تطور التكنولوجيا في وسائل الإعلام والاتصالات، ثم دخولها إلى الأسواق، استهدف الوصول إلى الجماهير لإقناعهم بالأولويات التي رسمتها الخطة الرأسمالية. فقد أتاح التقدم السريع لوسائل الاتصال حول العالم، وتوسع انتشار أشكال الاتصال الجماهيري – خاصة المرئي والمسموع – إلى جانب تعميم المعلومات، فتح آفاق جديدة ومتنوعة للعلاقة بين الاتصال الجماهيري والتربية. فامتد نفوذه إلى مجال التربية والتعليم، مدعيًا نشر أعراف عالمية تهدف إلى ضم الشعوب إلى تيار موحد. ومن خلال بث قيم تربوية متزايدة، خلق التلفزيون محيطًا تربويًا، لكنه تحول بدوره إلى هدف تربوي بحد ذاته، بينما خسرت المدارس دورها كجهاز تربوي أساسي.

التربية أداة جوهرية تعلم الناس فن الاتصال البيني لاستخلاص أفضل فائدة من التفاعل الاجتماعي، وهناك علاقة متبادلة بين الاتصال والتربية تتطور وتزداد باستمرار. غير أن القيمة التربوية لدى شركات الإعلام والاتصالات تعتمد على المنافع التي تضمن بقاءها واستمراريتها. أما المدارس، فتبقى ذات أثر عميق في إعداد العقول وصقلها، وتهذيب النفوس البشرية، وتحتل أهمية أولية ورئيسية في نظر الأدباء والمفكرين والباحثين في شتى أنحاء العالم.

لا يمكن إغفال التأثير التربوي لوسائل الاتصال الجماهيري عمومًا، والتلفزيون خصوصًا، لكن مضمون الرسائل الإعلامية المبثوثة غالبًا ما يبتعد عن الطابع التربوي. فالتزايد المستمر في حجم المواد الإعلامية الموجهة يوميًا إلى شرائح اجتماعية جديدة وفي أماكن متفرقة، أوحى بأن الوصول إلى المعرفة أصبح حرًا، غير مقيد بالثوابت التربوية أو المبادئ الأخلاقية.

إن المعرفة التي تقدمها وسائل الإعلام، والتي تتراكم يوميًا، تأتي في صورة طاغية الألوان، لكن كثافة هذه الألوان تجعل تحديد معالم الصورة أمرًا عسيرًا. كذلك، فإن البرامج التلفزيونية لا تتناغم البتة

[5] **Literature in the Discipline**, Part 2, *Literature and Globalization; A Reader*, Ed. Liam Connell and Nicky Marsh, Routledge Literature Readers, 2011, p. 93

مع مواقف الطبقات الفكرية التقليدية. وبغض النظر عن القيمة الظاهرة للمعارف التي يقدمها التلفزيون وغيره من وسائل الاتصال الجماهيري، لا بد من الإقرار بحقيقة أن الأولوية غالبًا تُعطى للإعلام المثير أو السطحي، القادر على إثارة الضجة، ولو على حساب الرسالة الحقيقية للإعلام.

مع ذلك، لا يمكن إنكار أن محطات تلفزيونية في العديد من البلدان قد أنتجت برامج تربوية هامة ومفيدة، بهدف تكميل الدروس المدرسية والجامعية وتعميقها، كالبرامج الموجهة إلى المزارعين وأصحاب الأعمال الذين يحتاجون إلى معارف تقنية. لكن هذه البرامج لا تتعدى حدود النفع المادي في المجالات المهنية والتقنية المتعلقة بالأغراض الاقتصادية، ولا تساهم بشيء يذكر في تهذيب النفوس أو تصفية القلوب. وعندما تتلاشى هذه المعلومات التقنية من البرامج، تنعكس النتائج سلبًا على سلوك المشاهدين وطباعهم[6].

يسود لدى البعض تصور يرى أن وسائل الإعلام والاتصال تتحمل مسؤولية نقل المعارف المعاصرة فقط، بينما يعود حفظ التراث ونقله إلى المدارس. في المقابل، يعتقد آخرون أن على المدرسة أن تتولى توفير المعرفة الاجتماعية الفعّالة التي تؤهل الطالب للوصول إلى أعلى المراتب العلمية، أما وسائل الإعلام فتقتصر مهمتها على التسلية والترفيه، وتضع نفسها في خدمة التبادل والتفاهم الدولي. وباختصار، دون جدال، فإن التربية في جوهرها سعي لتزويد الفرد عامة، والأطفال والناشئة خاصة، بالفضائل والقيم التي يستند إليها الناس في سلوكياتهم داخل المجتمع. وهي تأتي عبر أنماط التعليم وأنظمة التفكير الحر، مع التركيز على تنمية قدراتهم وإيقاد جذوة الإبداع فيهم، لتتشكل بذلك شخصية مواطن صالح، منسجم مع العالم والمجتمع، ومع ذاته في آن واحد.

الحاسوب ودوره في الاتصالات:

دخل جهاز الحاسوب إلى سوق الاستهلاك محملاً بفكرة تعزيز الاتصالات التجارية والدبلوماسية والمعلوماتية، فكثّفت الجهود لإقناع المستهلكين باقتنائه. رُكز الضوء على جوانبه الإيجابية في مجالات الرعاية الصحية، والتعليم، والخدمات اليومية. ففي ميدان الصحة، أُوحي للمستهلكين بإمكانية التواصل مع طبيب مختص يفحص المريض عبر شاشة الجهاز دون الحاجة إلى نقله إلى العيادة. وفي

[6] المصدر السابق، الدكتورة جمانة رشيد، ص. 167

مجال التعليم، أُشير إلى إمكانية عقد الفصول الدراسية عن بُعد، حيث يظهر الأستاذ على الشاشة أمام طلاب من شتى أنحاء العالم. والأبرز أن الطلاب يستطيعون طرح أسئلتهم مباشرة على الأستاذ عبر أداة بسيطة متصلة بالحاسوب، كما يمكن للأستاذ توجيه أسئلة لكل طالب خلال الدرس. وبقدر فعالية هذا التفاعل، يتحقق نجاح تجربة التعليم عن بُعد. يتميز هذا الجهاز بقدرته على ربط النصوص المكتوبة بالأرقام والأصوات والصور والأفلام، مجمعًا في آن واحد وظائف التلفزيون والحاسوب والهاتف، ليتيح للمستخدم التعامل معه وفق إرادته[7].

لقد شهدنا هذه التفاعلات في أبهى صورها خلال جائحة كوفيد-19، حيث تواصل الطلاب، باختلاف أعمارهم واهتماماتهم، عبر هذا الجهاز، فتابعوا الدروس وتلقوا المحاضرات. لكن ما كانت النتيجة؟ فقد أقر خبراء تكنولوجيا المعلومات بأن التعليم عبر الشبكة لن يعادل أبدًا التعليم بالحضور الجسدي أمام الأستاذ. ورغم ذلك، ازداد الاعتماد على الآلات الرقمية في تلك الفترة المضطربة، وتعلق بها الشباب والناشئة على وجه الخصوص. ولم يستفد أحد في خضم هذه الأمواج الهائجة بقدر ما استفاد الرأسماليون الذين استثمروا بقوة في حقول تكنولوجيا المعلومات. كانت لهم أهداف مركزية، خفية أحيانًا وجلية أحيانًا أخرى، كما تناول مارشال ماكلوهان (Marshall McLuhan) هذه الأغراض في كتابه "القرية العالمية"، حيث تخيل أن العالم، بفضل هذا الاتصال الاجتماعي، سيصير قرية صغيرة يصبح فيها كل شيء في متناول اليد دون عناء أو مشقة. وقد تحقق ذلك فعلاً، إذ ارتبط العالم ارتباطًا وثيقًا عبر شبكة الاتصالات المعتمدة على الحاسوب، التي عُرفت بـ"الإنترنت". ثم برزت مواقع ومنصات للتواصل واللقاء بين الناس، أُطلق عليها اسم "منصات التواصل الاجتماعي".

سلبيات التواصل الاجتماعي:

بينما سهّلت الشبكة الاتصالات، وابتهج الناس بالتيسيرات التي قدمتها لهم، لوحظ من جانب آخر أن انتشار الإنترنت ومنصات التواصل الاجتماعي ترك أثرًا سلبيًا بعيد المدى على عقول المستخدمين وسلوكياتهم. وعلى وجه الخصوص، أصبح الجيل الناشئ والمراهقون فريسة لهذا الهجوم الرقمي.

[7] الدكتور مصطفى الصمودي ، "**جهاز إعلامي شامل**" ، مجلة العربي الشهرية، وزارة الإعلام بدولة الكويت، العدد 428، يوليو 1994، ص. 94

فقد أظهرت أبحاث حديثة أن قضاء أوقات طويلة على الأجهزة والاتصال بالشبكة يولد تأثيرات سلبية. ومن الملاحظ ظهور ميل غريب ونزعة جديدة بينهم، تُعرف بـ"الثقافة السيبرانية"، وتتجلى مظاهرها بوضوح بين الشباب عمومًا.

تُعد شبكة الإنترنت مصدرًا فعّالاً في توفير هذه الفرص، مساهمة في اكتشاف جوانب متنوعة وعجيبة من التواصل، وتطوير علاقات حميمة عبر الفضاء الرقمي. وفي هذا السياق، برزت الهواتف الذكية والإنترنت بدور محوري، حيث غيّرتا أسلوب التواصل بين الناس. فتزايدت المساعي لبناء علاقات اجتماعية وعاطفية ذات أهداف غامضة وغير محددة على نطاق واسع. وليس ذلك بمستغرب، إذ فتحت المنصات نوافذ على العالم، فانطلقت طباع إنسانية كامنة تتطلع إلى مواقع تمنحها الراحة النفسية. فالرغبة في العلاقات الحميمة تظل جوهر التبادلات الاجتماعية الإنسانية[8].

لقد أسهمت تقنيات العصر الحديث، كالذكاء الاصطناعي والواقع الافتراضي، في خلق تفاعلات إلكترونية متنوعة، تعبر بوضوح عن الرومانسية أحيانًا. واليوم، باتت هذه التجارب على المنصات الإلكترونية أكثر عمقًا، إذ توفر إحساسًا بالتقارب الجسدي بين الناس، وتمكن المستخدم من عيش تجارب ملموسة تشبه الواقع. لكن يبرز سؤال يتبادر إلى الذهن: هل تقربنا هذه الألفة أم تبعدنا؟ في الحقيقة، إنها تبعدنا. فقد أحدثت تطبيقات المواعدة ثورة هائلة في عالم الرومانسية، إذ يشعر المستخدم براحة أكبر ولذة غريزية في استكشاف علاقات دون نية الارتباط الجدي بشريكه على الشاشة.

هذا التحول الاجتماعي والثقافي العميق حفّز الجيل الرقمي على خوض التجربة، وفتح قنوات متعددة توفر فرصًا لمحادثات الألفة عبر الإنترنت. لكن هذه الفرص قد تؤدي إلى تعرض المستخدم لتحرش مزعج يشوه سمعته، فيجد نفسه أمام كشف مشاعره وأحاسيسه، والتلاعب بها، بل والاعتداء الجنسي غير المقبول. كما قد يواجه كشفًا لهويته وصورته بطريقة غير مرغوبة. وفي بعض الأحيان، تحدث تسريبات للبيانات الشخصية، مصحوبة بتهديدات وابتزاز وتصيد إلكتروني، وغير ذلك. وتترك هذه التجارب أثرًا بالغًا في حياة الفرد وصحته النفسية.

[8] Geetika Sachdev, "**Sex, Love and Metaverse**", The Hindu, Sunday, Magazine, Hyderabad, April 17,2022, p. 03

تشكل الهواتف الذكية ومنصات التواصل الاجتماعي مصدر قلق رئيسي في الوقت الراهن. فبالإضافة إلى المخاطر الصحية، أدى الاستخدام المفرط للهواتف الذكية إلى تراجع المستوى الأكاديمي، حيث يعاني الشباب بشدة من ضعف في التفكير النقدي.

لا يمكن تجاهل النقاش حول فوائد الثورة الرقمية. فالذكاء الاصطناعي، الذي نشأ من هذه الثورة، يشهد استخدامًا متزايدًا في الفصول الدراسية حول العالم. فقد أظهر استطلاع رأي في بريطانيا أن جميع طلاب مرحلة البكالوريوس تقريبًا يعتمدون على أدوات الذكاء الاصطناعي في دراستهم. وفي العام الماضي، كشفت دراسة أجرتها شركة EdTech TeamLease أن أكثر من 61٪ من المعلمين في الهند يستخدمون هذه الأدوات أيضًا[9].

تثير هذه البيانات مخاوف من أن يميل الطلاب إلى تقبل المعلومات كما تظهر على الشاشة دون تحليل نقدي. وهنا يبرز تساؤل: هل يعزز الذكاء الاصطناعي مهارة التفكير النقدي ويسهم في إثراء التعليم؟ تتباين الآراء حول ذلك، لكنها تجمع على أهمية التمسك بالقيم الأخلاقية في هذا السياق، إذ بات استخدام أدوات الذكاء الاصطناعي واسع الانتشار بحيث يصعب تجنبه.

تحتوي الأدوات الرقمية على مواد وفيرة قادرة على تشتيت انتباه المستخدم بسهولة بالغة. فقد يسعى المستخدم للبحث عن شيء معين، لكنه يجد نفسه منحرفًا إلى مسار آخر في دهشة. ويعود ذلك إلى كم المعلومات المزودة على المنصات، التي تكفي لتضليل المستخدم دون جهد يُذكر. ومن ثم، تبرز حاجة ملحة إلى العناية واليقظة، لا سيما في ظل الظاهرة العالمية المعاصرة، حيث يتنافس العالم في ميدان الأمن الإقليمي والحفاظ على الهوية الثقافية.

تتباين المصالح وتؤثر تأثيرًا كبيرًا على النتائج. فالقيم الأخلاقية تختلف تصوراتها باختلاف الأقاليم؛ إذ يتبنى المجتمع الغربي قيمًا أخلاقية قد لا تتفق إلى حد بعيد مع تلك التي يتمسك بها المجتمع الشرقي. فالدول الغربية تركز على المصالح الاقتصادية والمادية أكثر من الشرق فيما يتعلق بالمبادئ الأخلاقية. ومن هنا، برزت فكرة التطور كنقطة تخدم الأغراض السياسية.

[9] Sai Charan, "**Is Artificial Intelligence effecting Critical Thinking Skills**", The Hindu Daily, Hyderabad, March 2. 2025, p. 13

بعد الاطلاع على الإنجازات خلال السنوات الأخيرة كما وردت في تقرير التنمية البشرية، يتضح أن المهمة الإصلاحية في الأيام القادمة تتطلب استراتيجية واضحة لخوض رحلة طويلة. فنشهد مستوى منخفضًا للتنمية البشرية، وارتفاعًا في عدم المساواة، وتراجعًا في ادخار الأموال، مع تصاعد الديون. لذا، قد آن الأوان للتفكير في استراتيجية متوازنة تربط بين مفهومي النمو والتنمية البشرية[10].

تأثيرات سلبية:

تهمين الدول الغربية على فضاء الإعلام، وبالتالي فكل ما يتم بثه في إعلامها ينتشر في العالم بسرعة فائقة، فيستخدم الغرب هذا الفضاء الواسع لنشر عقائده وثقافته في العالم وخاصة في الدول النامية. ويمكن تبيين ذلك مثلا من المنشورات على منصات التواصل الاجتماعي خلال فترة الحملة الانتخابية الأخيرة في الولايات المتحدة. وعلى سبيل المثال، فبعد انسحاب الرئيس الأمريكي جو بايدن من التنافس الرئاسي الأمريكي لعام 2024، وتأييده لنائبته كامالا هاريس كمرشحة للحزب الديمقراطي، حظيت هاريس بدعم سريع من شخصيات سياسية بارزة، من بينها الرئيس السابق باراك أوباما. إلا أن ترشيحها أثار جدلا سياسيا على نطاق واسع. كما شاب حملتها تضليل إعلامي ومعلومات مضللة من إنتاجات الذكاء الاصطناعي[11].

حتى قبل إعلان ترشيحها كانت المرشحة هاريس هدفا لصور ساخرة ومحتوى فيديو ركز على تصرفاتها التي أظهرتها بشكل عام في صورة سيئة. تصاعدت هذه الهجمات بعد إعلان ترشيحها. وهي كانت شخصية بالأساس، ركزت على ميلادها وشخصيتها ونزاهتها كأمريكية، على سبيل المثال، نشر فيديو معدّل بصوتها المستنسخ، مع النصوص التالية، وشارك ذلك الفيديو إيلون مسك بنفسه وهو مؤسس إحدى منصات التواصل الاجتماعي، فشوهدت كمالا هاريس فيه وهي تقول إن الرئيس

[10] M. Suresh Babu, "**Giving Primacy to Human Development**", The Hindu, Hyderabad, Opinion, May, 9, 2024

[11] Manish Tiwari, "**Big Tech's fail unsafe online spaces for women**", The Hindu, Editorial, November 5, 2024

بايدن مصاب بالخرف، وإنها لاتعرف شيئا عن إدارة البلاد، وإنها بصفتها امرأة وشخصا ملونا، المرشح الأمثل للتنوع[12].

بالإضافة إلى هذه الاعتداءات الرقمية واجهت المرشحة هاريس حملات تصعيد لاهوادة فيها، لاسيما من شخصيات يمينية، وكثيرا ما سخرالرئيس الأمريكي السابق دونالد ترمب من أسلوب ضحكها، ووصفها بالجنون. وكان الإعلاميان ميغان كيلي وبن شابيرو صريحين في منشوراتهما حول كيفية وصول المرشحة إلى القمة. وزخرت منصات التواصل الاجتماعي بنكات مهينة وصور جنسية وتعليقات عنصرية وجنسية موجهة ضدها. وقد ظهر مؤخرا مقطع فيديو مولد بواسطة الذكاء الاصطناعي ، يصور المرشحة هاريس ودونالد ترمب في علاقة رومانسية كاذبة، لاتنتهك هذه المقاطع المولدة بواسطة الذكاء الاصطناعي الخصوصية فحسب، بل تقوّض كرامة المرأة بشدة، ورغم علم المستخدمين بأن هذا المحتوى مزيّف، إلا أن انتشاره الواسع يشير إلى تفاعل كبير من المستخدمين.

ليست حالة معزولة

محنة المرشحة هاريس ليست حالة فردية، فالنساء في مراكز السلطة أو الطامحات إلى مناصب عليا يواجهن مضايقات إلكترونية مماثلة. فعلى سبيل المثال، تعرضت السياسية الأمريكية نيكي هيلي، خلال ترشحها للانتخابات التمهيدية للحزب الجمهوري، لانتشار صور فاضحة مزيفة تم اختلاقها وافتراؤها على الإنترنت. كما كانت رئيسة الوزراء الإيطالية جورجيا ميلوني هدفًا لهذا النوع من المضايقات، حيث ظهرت في فيديو ملفق ومسيء.

لم تنجح شركات التكنولوجيا الكبرى في كبح جماح سيل المحتوى المهين ضد النساء، بل أثقلت كاهلهن بأعباء لا تتناسب معهن، مما ينعكس سلبًا على هويتهن وكرامتهن وسلامتهن النفسية. وتختلف طبيعة الإساءة الإلكترونية التي تتعرض لها النساء اختلافًا جوهريًا عن التصيد أو الإهانات التي يواجهها الرجال. فبينما قد يتعرض الرجال لمعلومات مضللة تتعلق بأعمالهم أو مهامهم، تواجه النساء نشر محتوى جنسي صريح والسخرية من أجسادهن. وغالبًا ما تتهرب شركات التكنولوجيا

[12] Manish Tiwari, "**Big Tech's fail unsafe online spaces for women**", The Hindu, Editorial, November 5, 2024

الكبرى من المسؤولية، مدعية أن منصاتها مجرد مرآة لمشاعر المستخدمين، وأنها عاجزة عن التحكم الدقيق بها، مستندة إلى حصانة "الملاذ الآمن" التي تحميها من المساءلة.

أكثر من مجرد وهم بتمكين المرأة

رغم الإشادة بالتكنولوجيا كأداة لتمكين المرأة، فإن الذكاء الاصطناعي والتقنيات الرقمية تبدو بعيدة كل البعد عن الحياد الجنسي. بل إنها تعكس التحيزات المجتمعية والصور النمطية المتأصلة، فبدلاً من أن تحرر المرأة، قد يعمل الذكاء الاصطناعي على تضخيم هذه التحيزات، ليصبح أداة جديدة للإساءة إليها ومضايقتها. ومع التطور المتسارع للذكاء الاصطناعي، تتزايد مخاطر الإساءة الرقمية والعنف والتهديدات التي تواجهها النساء. غالبًا ما تفتقر هذه الأنظمة، التي تشكلت من بيانات مشبعة بالتحيزات المجتمعية وطورتها فرق يغلب عليها الرجال، إلى الشمولية الكافية لمواجهة التمييز بفعالية. كما يظل تمثيل النساء في مجال تطوير التكنولوجيا ضئيلاً في شركات مثل ميتا وجوجل وأوبن إيه آي.

ومع انتشار المحتوى الجنسي الصريح، يترتب ضرر جسيم من المشاركة والمشاهدة. والأكثر إثارة للقلق أن أصحاب شركات التكنولوجيا الكبرى أنفسهم يساهمون في نشر معلومات مضللة ومقاطع فيديو ملفقة.

مشاكل اجتماعية:

لقد شكلت التكنولوجيا الرقمية تهديدات من زوايا مختلفة بما في ذلك جهة الاخلاقيات. أعرب الكاتب بهوان ريبو[13] عن قلقه في سياق حكم تاريخي ضد الاعتداء الجنسي على الأطفال عبر الإنترنت. أصدرته المحكمة العليا الهندية في التماس قدمه تحالف "الحقوق العادلة للأطفال"، وقال إنّ هذا الحكم سيكون له تأثير عالمي طويل الأمد على المجتمع والجريمة وحقوق الأطفال.

في يناير 2022، أصدرت محكمة مدراس العليا حكمًا يقضي بأن مجرد تنزيل مواد إباحية تتعلق بالأطفال لا يشكل جريمة، وقامت بإلغاء دعوى جنائية ضد رجل يبلغ من العمر 28 عامًا. يتساءل ريبو

[13] Bhuwan Ribhu "**A blueprint for safeguarding children**", Opinion, The Hindu, Hyderabad, October 15, 2024

باستغراب: كيف يمكن لشخص يبحث عن محتوى يتعلق باغتصاب طفل، ويشاهد مقاطع فيديو حول ذلك، مما يزيد الطلب على مثل هذه المواد، أن يفلت من العقاب؟ إن هذا الحكم لا يتعارض فقط مع روح قانون حماية الأطفال من الجرائم الجنسية لعام 2012، بل يثير أيضًا مخاطر تطبيع استغلال الأطفال. لكن المحكمة العليا الهندية تدخلت لتصحيح هذا الخطأ الجسيم في 23 سبتمبر 2023.

لم يكتفِ حكم المحكمة العليا بتوسيع نطاق تعريف الجريمة ليشمل تنزيل وتخزين هذه المواد كفعل مجرم، بل وضع أيضًا إطارًا شاملاً لمكافحة مواد الاستغلال والاعتداء الجنسي على الأطفال، مفروضًا مسؤوليات صارمة على وسطاء منصات التواصل الاجتماعي للامتثال للقانون الهندي. وقد أعاد الحكم صياغة مفهوم الجريمة، رافضًا اعتبار هذه المواد مجرد وسيلة لتسلية البالغين، ليؤكد خطورتها وتأثيرها على سلامة الأطفال.

يبرهن هذا الحادث أن الأفراد الذين يبحثون عن مثل هذه المواد أو ينزلونها يشكلون في الواقع حلقة في سلسلة العرض. هذا الطلب يؤجج استغلال الأطفال واغتصابهم، واستمرار هذه الجريمة يثير القلق والاختناق. فلا تزال هذه الصور تتداول على الإنترنت، معرضة الأطفال وعائلاتهم لأضرار متواصلة، إذ يعاد استغلالهم لفترات طويلة بعد وقوع الحادثة. والأمر الأكثر إثارة للقلق أن كثيرًا من الأطفال لا يدركون أنهم ضحايا، بينما تُنشر صورهم سرًا عبر الشبكة.

يتعرّض الناس اليوم لضغوط اجتماعية ورقمية هائلة تؤثر سلبًا على جودة حياتهم، فهم بحاجة إلى صحة شاملة تجمع بين السلامة البدنية والعاطفية والعقلية والاجتماعية ليعيشوا حياة متوازنة. ولتحقيق ذلك، يتطلب الأمر اهتمامًا كافيًا بالحوارات التي تركز على القيم الإنسانية وتحفز على النمو المثالي للأطفال. كما تظل مشاركة الوالدين جوهرية، مثل قراءة قصة للأطفال قبل النوم، فقد أثبتت الدراسات العلمية أن اتباع نمط حياة منظم يعزز جودة النوم، مما يساهم في نمو أفضل. لكن في الوقت الحالي، عطّلت اضطرابات أنماط الحياة فرص التمتع بصحة جيدة، ما أدى إلى تفشي أمراض مثل السكري وارتفاع ضغط الدم والسمنة.

عودة إلى الأدب الروحي:

الصحة النفسية والعاطفية لا تقل أهمية عن الصحة البدنية، فهي تدعم الاستقرار العاطفي. فالمنزل الذي يتيح لأفراده التعبير بحرية عن مشاعرهم وعواطفهم، ويوفر فرصة للتجمع مع أفراد الأسرة لمناقشة القيم -التي تُعد أداة فعّالة لتخفيف القلق- يسهم فعلاً في تحقيق نمو شامل. لذا، يتعيّن على الوالدين تشجيع النقاشات الصريحة لمساعدة الأطفال على التعامل مع مشاعرهم. فمن تلقى تربية سليمة تقوم على قيم صحيحة ومعيارية، يصبح قادرًا على مواجهة المواقف الصعبة بكفاءة أكبر.

لقد ضعفت العاطفة في قلوب الناس، وضعفت الصلة الروحية بالدين وبتعاليم النبي صلى الله عليه وسلم وهو خطر كبير، يمهد الطريق لكل اضطراب ولكل ضعف، ولكل نوع من أنواع الفوضى، وقد اجتمعت عوامل كثيرة ودعوات عديدة على تجفيف منابع هذا الحب، وإضعافه على الأقل، وأصيبت النفوس بجفاف في الشعور، وفي التفكير، سرت تلك المناقص في الأدب والشعر، وتعدى إلى الدين ومظاهره[14].

خلاصة الحديث:

تبيّن من العرض أعلاه أن المجتمع قد أصابه ضرر كبير، إذ يواجه صعوبات وفوضى على جبهات شتى، ويبرز دور الإنترنت ومواقع التواصل الاجتماعي في هذا السياق جليًا. وبما أن هذه المواقع صارت جزءًا لا ينفك عن الحياة المعاصرة، فإن من الواجب تدريب الناشئة والمراهقين في ظل هذه الظروف عبر الكتب الأدبية والنصوص التربوية، ليتمكنوا من التفريق بين الخير والشر، والنافع والضار. فالكتب التي تقدم القيم والمبادئ تؤدي دورًا محوريًا في صياغة شخصية مثالية، ناشرة فيها روح التعاضد والتضامن والإيثار والاحترام والتقدير، وهي قادرة على انتشال الجيل الحالي من ويلات الاضطراب والقلق والكرب والاكتئاب وشعور الخذلان.

ورغم ما يراه المجتمع من فوائد في الوصول السريع إلى المعلومات، فإن هذه التقنيات تحمل في طياتها أضرارًا صحية وأخلاقية تنجم عن الاستخدام المفرط للإنترنت، قد تؤثر سلبًا على بنية الدماغ. لذا، نبّه الخبراء إلى مخاطر الإفراط في الاعتماد على وفرة المعلومات التي توفرها التكنولوجيا الحديثة.

[14] أبو الحسن على الحسني الندوي "الطريق إلى المدينة"، المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، الطبعة الخامسة 1407/1987، ص. 3

فكثرة المعرفة وتجميعها لا تعني بالضرورة بلوغ ذروة العلم أو اكتساب مكانة مرموقة في المجتمع، بل المعرفة الحقة هي تلك التي تقترن بالانضباط وقوة الفهم والتفكير العميق، مدعومة بالنقد العلمي والمنهج الفكري البناء.

مراجع البحث:

- تقرير صحفي في جريدة أردوية "اسکولوں میں اسمارٹ فون کے استعمال پر پابندی" روزنامه منصف، حیدرآباد، اگست 15، 2024
- الدكتورة جمانة رشيد شومان، "**التلفزيون**"، مجلة العربي الشهرية، وزارة الإعلام بدولة الكويت، العدد 428، يوليو 1994، ص. 165
- الدكتورة جمانة رشيد شومان، "**التلفزيون**"، مجلة العربي الشهرية، وزارة الإعلام بدولة الكويت، العدد 428، يوليو 1994، ص. 166
- الدكتورة جمانة رشيد شومان، "**التلفزيون**"، مجلة العربي الشهرية، وزارة الإعلام بدولة الكويت، العدد 428، يوليو 1994، ص. 167
- الدكتور مصطفى الصمودي ، "**جهاز إعلامي شامل**" ، مجلة العربي الشهرية، وزارة الإعلام بدولة الكويت ، العدد 428، يوليو 1994، ص 94
- أبو الحسن على الحسني الندوي "الطريق إلى المدينة" ، المجمع الإسلامي العلمي، ندوة العلماء لكناؤ ، الطبعة الخامسة 1407/1987، ص. 3

- Rita Raley, **Technology and Cyber-cultures**, Chapter 23, *Literature and Globalization; A Reader*, Ed. Liam Connell and Nicky Marsh, Routledge Literature Readers, 2011, p. 231
- **Literature in the Discipline**, Part 2, *Literature and Globalization; A Reader*, Ed. Liam Connell and Nicky Marsh, Routledge Literature Readers, 2011, p. 93
- Geetika Sachdev," Sex**, Love and Metaverse**", The Hindu, Sunday, Magazine, Hyderabad, April 17,2022, p. 03

- Sai Charan, "**Is Artificial Intelligence effecting Critical Thinking Skills**", The Hindu Daily, Hyderabad, March 2. 2025, p. 13
- M. Suresh Babu, "**Giving Primacy to Human Development**", The Hindu, Hyderabad, Opinion, May, 9, 2024
- Manish Tiwari, "**Big Tech's fail unsafe online spaces for women**", The Hindu, Editorial, November 5, 2024
- Manish Tiwari, "**Big Tech's fail unsafe online spaces for women**", The Hindu, Editorial, November 5, 2024
- Bhuwan Ribhu "**A blueprint for safeguarding children**", Opinion, The Hindu, Hyderabad, October 15, 2024

..... ❖❖❖❖❖ .....